قِصَّةُ آيَةٍ

39

الصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ
خُلُقُ الأَنْبِيَاءِ

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى





الصبر عند الشدائد خُلُق الأنبياء

قال (تعالى) :

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦]

بعْدَ أنْ هاجَرَ الرَسُولُ ﷺ إلى الْمَدينة لكَيْ يدْعو النَّاسَ إلى الإسْلام ، امْتلأَتْ قُلُوبُ الْيَهُودِ والْمُنافقينَ والْمُشْركينَ بالْحقْدِ علَيْه وعلَى أَصْحابه ، وقَرَّرُوا أَنْ يُحاربُوهُ ويَتصَدَّوْا لهُ بكُلِّ وسيلَة .

وذاتَ يومٍ اجتمعَ كعبُ بنُ الأشرفِ زعيمُ الْيهودِ ، وفنْحاصُ بنُ عازورا وعبدُ اللهِ بنُ أُبَىٍّ بنِ سلُولٍ وبعضُ الْمُشرِكينَ ، لكَىْ يَبْحثُوا عنْ طَرِيقةٍ يُحَارِبونَ بهَا مُحمدًا ﷺ هو وأَصْحَابَه .

قالَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَىٍّ فى غيْظٍ :

ـ لقدْ كُنْتُ علَى وشْكِ أَنْ أَصِيرَ ملكًا علَى أَهْلِ الْمدينَةِ ، وعنْدمَا جاءَ محمدٌ انْصرفَ أَهلُ الْمدينة عنِّى وأَقْبلُوا عليْه .

وقالَ فنْحاصُ :

ـ أَمَّا مُشْكلَتُنا نحْنُ معْشرَ الْيهودِ فهىَ مُشْكلَةٌ كَبيرَةٌ ، حيْثُ كُنَّا ننْتظرُ النَّبىَّ الذى يظْهرُ فى آخرِ الزَّمانِ ،

فَإِذا هوَ منَ الْعَرَبِ وليْسَ مِنْ بَنِى إِسْرائيلَ ، فَوَاللَّهِ لا نَتْبَعُهُ أَبَداً ، وسوْفَ نُحارِبُه حرْباً لا هَوادَةَ فيها .

وتحدَّثَ كعْبُ بنُ الأَشْرَفِ فقالَ :

ـ يجبُ ألاَّ نضيعَ الْوقْتَ سُدًى ، وعلينْا أَنْ نُفكِّرَ فى وسيلَةٍ فعَّالةٍ فى معْركتنا ضدَّ محمَّدٍ وأَصحابه .

فقالَ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَىٍّ :

ـ يا كَعْبُ أَنتَ شاعرٌ معْروفٌ . . ابْدَأْ بِنَفْسِكَ وقلْ شعْراً تهْجو فيه محمَّداً وأَصْحابَهُ ، وتُؤلِّبُ عليْه كُفَّارَ قُريْشٍ ، وتذْكُرُ عوْراتِ الْمُسْلمينَ .

فاسْتَحْسَنَ كعْبُ بنُ الأَشْرفِ الْفِكْرةَ وقالَ :

ـ إِذَنْ واللَّه ليَجدونَ لِسانِى وهِجائى قاطعًا كالسَّيْفِ أَوْ أَشَدّ !

وأَضافَ عبدُ اللَّهِ بن أُبَىِّ بنِ سَلُولٍ قائلاً :

ـ أَمَّا أَنا فسوْفَ أَتعامَلُ مع محمَّدٍ بطَريقَتى ، فإِنِّى رأَيْتُ أَصْحابَهُ يوقِّرُونَهُ ويُجلُّونَهُ ، فواللَّه لا أَتحدَّثُ إِلَيْه إِلاّ كَشَخْصٍ عادِىٍّ ولنْ أُوقِّرُهُ أَوْ أُجلَّهُ ماحَيِيتُ .

ثم الْتفتَ إِلى فنْحاصَ وسألهُ قائلاً :



ـ وماذا عنكَ يا فنحاصُ ؟ وأنتَ من كِبارِ عُلَماءِ اليهودِ وتستطيعُ أنْ تلعبَ دورا كبيراً .

فأجابَ فنحاصُ :


ـ سوفَ أُجنِّدُ أنصارى للترويجِ للادِّعاءاتِ المُغرِضَةِ ضدَّ محمَّدٍ وأتباعهِ حتى يتشكَّكَ الناسُ فى دينهمْ وينصرِفوا عَنْ محمَّدٍ .

واتَّفقَ الثَّلاثةُ على تنفيذِ ما اتَّفقوا عليهِ على الفورِ ودونَ تضييعٍ للوقتِ حتى يُحارِبوا دعوةَ محمَّدٍ ﷺ .

اختبأَ كعبُ بنُ الأشرفِ فى مكانٍ خارجَ

الْمدينةِ ، وظلَّ يقولُ الشّعرَ يهْجُو فيه رسُولَ اللّه ﷺ ، ويَتطَاولُ فيه على الإسلامِ والْمُسلمين ، وبرغْمِ تحْذيرِ الرسولِ ﷺ لَهُ إلاَّ أَنَّهُ لم يَكُفَّ عنْ هجائه لهُ ، فلمْ يجدِ الرّسولُ ﷺ أَمامَهُ سوَى أنْ يأْمُرَ بقَتْله ، فأَرْسَلَ إليه محمدَ بن مسْلَمَةَ وأصحَابَهُ وأمرهُمْ بقَتْله فقَتلوهُ وأراحُوا النَّاسَ منْهُ ومنْ تطَاوُله على الرسولِ ﷺ .

واسْتَغَلَّ فنحاصُ معْرِفتَهُ بالتَّوْراةِ فراحَ يشَكِّكُ في الْقُرآنِ الْكريمِ وفي نبُوَّةَ الرسولِ ﷺ ، وأخذَ يسْخَرُ منْ آياتِ الْقرآنِ الْكريمِ في كلِّ موْقفٍ .



فعندما نزل قوله (تعالى) :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[سورة البقرة : ٢٤٥]

قالَ فنحاص في سُخْرِيةٍ :

ـ اسْمَعُوا إلى قُرْآنِ محمدٍ ، إِنهُ يزْعمُ أَنَّ اللَّهَ يحتاجُ إلى قرْضٍ منَ النَّاسِ ، فإِنْ كانَ ذلكَ حقًّا فإِنَّ اللَّهَ فقيرٌ ونحنُ أَغْنياءُ .

وكانَ أَبُوبكْرٍ قَريبًا منْهُ فسَمَعَهُ فلَطَمَهُ على وجْهِهِ لطْمَةً قوِيَّةً فَسالَ الدَّمُ منْ وَجْهِهِ وقالَ له أبوبَكْرٍ :

ـ واللَّهِ لولا الْعَهْدُ الذي بيْننا وبيْنكُمْ لضَرَبْتُ عنُقَكَ يا عَدوَّ اللَّهِ !

أمَّـا عـبْـدُ اللَّه بن أُبيٍّ بن سلولٍ زعـيمُ الْـمنافقينَ ، فقد واصل طريقتهُ الاستفزازيَّة فى مُـخـاطبـة الرسـول ﷺ ، فلم يبْـد له الاحترام الْواجب ولا التَّوقير اللاَّزم ، وكان بذلك ينفِّس عن حقْده وغيظه وكـراهيته لرسول اللَّه ﷺ .

فبيْنما كان الرسولُ ﷺ فى طريقه لزيارة سعْد بن عبادة ، إذْ مرَّ بمجلسٍ فيه عبْدُ اللَّه ابن أُبيٍّ بن سلولٍ وبعضُ الْمسلمين وبعضُ الْـمـشـركين من عـبـدة الأوْثان وكـان فى الْـمجلس عبدُ اللَّه بْنُ رواحة .

وكـان الرسـولُ ﷺ يركبُ حـمـارًا ،

فأَثَارَ هذا الْحمارُ الْغُبَارَ مِنْ حَوْلِهِ فوضع عبدُ اللَّه بن أُبَيٍّ طرفَ ردائه على أَنْفِهِ وقال في غِلْظَةٍ وسُوءِ أدبٍ :

ـ لا تغبِّرُوا علَيْنا .

فوقفَ الرسولُ ﷺ ، فسلَّمَ علَيْهِمْ ثم نَزلَ فدعاهُمْ إلى اللَّهِ ، وقرأَ علَيْهِمُ الْقرآنَ .

فقالَ عبدُ اللَّه بن أُبَيٍّ في وقَاحةٍ :

ـ أيُّها الْمرءُ : إنَّ ما تقولُهُ حَسَنٌ وجميلٌ ، ولكنْ أَنْصَحُكَ بأَنْ تحتفظَ به لنفْسكَ حتى لا تؤْذِيَنا في مجالسنا ، فإذا جاءكَ أحدٌ يريدُ أَنْ يسمعَ منكَ فاقْصُصْ عليه !

ولمْ يحتمِلْ عبْدُ اللَّه بنُ رَوَاحَةَ ذلكَ فقالَ :

ـ بلَى يا رسُولَ اللَّهِ ، فائتنَا فى مجالسِنا واقْصُص علينْا فإنَّا واللَّهِ نُحِبُّ ذلكَ .

واشْتبكَ الْمسلمونَ والْمشركونَ اشْتباكًا شديدًا ، فلَمْ يزلِ الرسولُ ﷺ يُسكِّنُ الْمسلمينَ ويُهدِّئهُمْ حتى سكَنوا وانْصرفوا إلى بيُوتِهِمْ وهمْ فى حالَةِ غضَبٍ شديدةٍ .

وركِبَ الرسولُ ﷺ دابَّتَهُ ، وواصلَ سيْرهُ وهوَ حزينٌ منْ أجْلِ هذا الْموقفِ ، وعِنْدما رآهُ سعْدُ بن عُبادةَ عرَفَ أنَّ شيْئًا يُضايقُه فسألهُ فى لَهْفَةٍ :

ـ بأبى أنْتَ وأُمِّى يا رسولَ اللَّهِ ، ما الذى يُحْزِنُكَ ؟

فقالَ الرسولُ ﷺ :

ـ يا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ ما قالَهُ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَيّ ؟

ثُمَّ قَصَّ الرسولُ ﷺ على سَعْدِ بْنِ عَبادة ما دارَ بينَهُ وبينَ عبدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ ، وتطاوُلَ ابْنِ أُبَيٍّ على الرسولِ ﷺ .

نظَرَ سعدُ بنُ عُبادةَ إِلَى وجْهِ النبيِّ ﷺ ، فرآهُ حزينًا ، وأحسَّ بالألمِ في نَفْسِهِ ، لكنَّهُ أرادَ أَنْ يُخفِّفَ عنِ النبيِّ ﷺ بعضَ ما يَشْعُرُ به فقالَ :

ـ أوَ تَسْمَحُ لي يا رسُولَ اللَّهِ بكَلِمَة ؟

فسَمَحَ له النبيُّ ﷺ بأَنْ يَتَكَلَّمَ ، فقالَ سعْدٌ :

ـ يا رسـول اللَّه ، اعفُ عنْه واصْـفحْ ، فوالَّذى أنْزَلَ عليْكَ الْكتابَ ، لقدْ جاءَ اللَّهُ بالْحقِّ الذى نَزَلَ عليْك ، وقـد اتَّفَقَ أهْلُ هذه الْمدينَة على أنْ يتوجُوهُ ملكًا ، فلما جئْتَنَا بدينِ الْحَقِّ ، انْصرفْنَا عَنْهُ وآمنَّا بك وصدَّقْناك .

وأضاف سعْدُ بن عُبَادَةَ قائلاً :

ـ ومنْذُ هذه اللَّحظَة وعبدُ اللَّه بن أُبَى بن سلُولٍ يمْتلِئُ قلْبُه غيْظًا وحقْدًا ، فاعفُ عَنْهُ واصْفحْ يا رسْولَ اللَّه !

وهدأَتْ نفْسُ الرسول ﷺ وارْتاحتْ لكلامِ سَعْد بن عبادَةَ ، فعفَا عنْ عبْدِ اللَّه بْنِ أُبَىٍّ وأَصْحابه .

وأَنْزَلَ اللَّهُ (تعالى) فى هذا الْمَوْقِفِ

قَوْلَهُ (عزوجل) :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦]

إِنَّ الابْتلاءَ هو سُنَّةُ اللّه فى خَلْقِه ، فقد يَبْتَلِى اللَّهُ الإِنسانَ فى مالِه أَوْ نَفْسِه ليَعْرِفَ مَدَى صَبْرِه ومُقَاوَمَتِه وعَزْمِه .

والصَّبْرُ هو الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ إِلى الْجَنَّةِ ، لأَنَّ الصَّبْرَ دليلٌ على الرِّضَا والاسْتِسْلامِ لأَمْرِ اللَّه ، وهو خُلُقٌ من أَخْلاقِ الأَنْبِياءِ والصِّدِّيقِينَ والشُّهداءِ والصَّالحين .

فقد ابْتَلى أَيُّوبُ عليه السلام فَصَبَرَ عَلَى ما ابْتَلاهُ اللَّهُ به ، وابْتَلي يُونُسُ عليه السلام ونوحٌ ولوطٌ وإبراهيمُ - عليهمُ السَّلامُ - فصبَروا جَميعًا على ما ابْتَلاهُمُ اللَّهُ به ، وهذا هو الْواجِبُ على كلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَصْبِرَ ويَحْتَمِلَ الأذى وأَنْ يكونَ واسِعَ الصَّدْرِ .

قال (تعالى) :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾

[سورة البقرة : ١٥٥-١٥٧]

كما يجبُ علَى الْمسلمِ أَنْ يكونَ حَذِرًا

فيما يُرَوِّجُهُ أَعْداءُ الإِسْلامِ ، فَهُمْ لا يَجِدونَ فُرْصَةً إلا وَطَعَنوا في هذا الدِّينِ ، لأَنَّ قُلوبَهُمْ مَمْلوءَةٌ بالْحِقْدِ والْكَراهِيَةِ للإِسْلامِ ، فَعَلَيْنا أَنْ نَحْذَرَ ذلكَ ، وأَنْ نكونَ على ثِقَةٍ ويَقينٍ أَنَّ الإِسْلامَ هو دينُ الْكَمالِ والْجَمالِ والْجَلالِ الذى ارْتَضاهُ اللَّهُ للْعالَمينَ ، ولِكَىْ نَقولَ ذلكَ عَلَيْنا أَنْ نَدْرُسَ الإِسْلامَ بِشَكْلٍ صَحيحٍ وأَنْ نَتَعَمَّقَ في الْقِراءَةِ والْمَعْرِفَةِ حَوْلَ الْقُرآنِ لأَنَّهُ يَكْشِفُ لنا الْكَثيرَ مِنْ هذِهِ الْمُؤامَراتِ كما رأَيْنا في هذه الآيَةِ !

رقم الإيداع ١٧٣٧٠ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى ١ - ٨١٨ - ٢٦٦ - ٩٧٧